

الأدب العربي في المغرب

## أبو العباس أحمد المقرئ

١٠٤١ هـ - ١٦٣١ م

بقلم عبد الهادي الشرايبي

- ١ -

إننا نشاهد، بملء الأسف، كثرة مفكرة من شباب المغرب ورجاله، يساور نفوسهم ضعف الثقة وارتياب مؤلم في ماضيهم القوي وتراثهم الجليل. فنجدهم لذلك يتأفنون ويضجرون كلما عرضت عليهم صورة من ذلك الماضي الزاهر، ويكيلون للمغرب والمغاربية عواصف من النقد اللاذع والسخط الشديد.

ولعل منشأ ذلك، فيما نرى، هو الجهل بما للمغرب في عصوره الفائرة من روعة وسمو يفوقان كثيراً ما يتخيله أولئك في تاريخ المغرب

ولو أنهم عمدوا إلى الوقوف على بعض من تلك الآثار الجليلة، واستعراض النماذج المتناثرة في ثنايا الكتب، لوجدوا في سجل المغرب من الصور الطريفة الرائعة ما يكون غذاء لروحهم المحببة، ورباً لنفوسهم الضمأى!

ولعلهم إن فعلوا فتذوقوا من ذلك الجمال الحى الخالد، ونهلوا من تلك اللذات اللذيذة، فسوف يجدون فيه المرمم الشافي لنفوسهم المريضة بداء اليأس، ويستبدلون بتشاؤمهم القائل تقاؤلاً

- ٢ -

وها نحن أولاء نجلى لهم اليوم صورة حية من ذلك التراث المجيد، وننتزع لهم من بين الصور الكثيرة مثلاً سامياً لهضة الأدب العربي في المغرب في القرن الحادى عشر:

شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقرئ<sup>(١)</sup> التلمسانى المالكي الأديب الكبير، الشاعر المؤرخ، ولد في تلمسان، ونشأ بها في بيت علم وأدب، وثقف كثيراً من الفنون على عمه أبي عثمان<sup>(٢)</sup> سميد المقرئ الأديب العالم الشهير، وأتقن اللغة العربية وآدابها، وبرع في معرفة أخبار المغرب وأنسابها.

(١) نسبة إلى مقر بفتح الميم وإيقاف المسددة: قرية من قرى تلمسان

(٢) اليواقيت الثينة

وكان له ميل شديد وإطلاع واسع على الآداب العربية وتاريخها في مختلف العصور، وأولع من لدن نشأته بالاطالعة والتنقيب عن أحوال الدول الإسلامية، واستظهار آفاقها، وبصفة خاصة ما كان متعلقاً منها بدولة المغرب في الأندلس، والوقوف على سر عظمتها، وتطورها بين صعود وزول، وكيف عبثت يد الزمان بتفكك الآثار الحافلة التي خلفها المغرب في أوروبا

شب الفنى، خصب الفكر، متقد الذهن، واسع الذائرة. يتقلب في فنون من الحديث، ويحلق في جو رائع من الخيال. يتنقل بين قصور قرطبة ومغانيها، ويقلب نظره الحائر في بدائع الحمراء ومجاليها، ثم يعود فيسترجم القدر إشفاقاً على مجالس أديها المتمعة ونواديها

وقد حدثته نفسه الطموح إلى مشاهدة آثار الفن الأندلسى الجليل بالذهاب إلى «فاس» ورؤية الحضارة الأندلسية، ورؤية هذه الآثار عن كثب، إذ هي صورة مصغرة من الحياة الأندلسية، بما فيها من مبان وآثار، ومجالس علمية وأدبية تضم أئمة الأدب وفطاحل العلم. فقصد فاس سنة ١٠٠٩ وملاها وطاب، وأخذ عن مجلة العلماء كالشيخ القطار، وابن أبي النعيم، وأحمد بابا السودانى التمبكتى وغيرهم؛ وأقام بقاس ميمون الحظ بين مظاهر الاجلال والاحترام إلى أن صار مفتى فاس وخطيب «جامعة القرويين»؛ ثم رحل إلى مصر والشام، وتردد على الحجاز كثيراً، وألف بالقاهرة كتابه «نفتح الطيب». وله مطارحات ومساجلات مع أدباء مصر والشام

- ٣ -

آثاره العربية: أبو العباس المقرئ متشعب النواحي كثير الباحث لمن شاء دراسته. له آثار قيمة في الفقه والكلام والأدب والتاريخ، وشعر متنثر في ثنايا كتبايه الجليليين: «نفتح الطيب»، من غص الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب<sup>(١)</sup> و«أزهار الرياض»، في أخبار القاضي عياض» وقد قصرنا هذا البحث على الناحية الأدبية، إذ كانت هي البارزة في حياته، فهو «حافظ المغرب وجاحظ البيان»<sup>(٢)</sup> شاعر

(١) في أربعة مجلدات ضخام طبع مرتين وفيه قصص كثير عن النسخ المخطوطة نرجو تداركه عند إعادة طبعه. وأزهار الرياض في أربعة مجلدات أيضاً، طبع الجزء الأول منه (٢) خلاصة الأثر ج ١ ص ٣٥٣

شعاراً وسلوة ، فيسير على سنن غيره من الشعراء ، ولكنه يخفق  
إذ يجد أن الصبر معناه إلهاب نار الشوق :

واني لأدري أن في الصبر راحة ولكن اتفاق على الصبر من عمري  
فلأنطف نار الشوق بالشوق طالباً سلواً ، فان الجمر يسمر بالجر  
ويموده الأمل في أن يأس غمرة من الدهر ، فيلتقي بمد طول

البين ، ويجتمع بمد أليم الفراق  
فتلتقي ، وعوادى الدهر غافلة عما روم ، وعقد البين محلول  
والدار آتية والشمل مجتمع والطير صادحة والروض مطلول  
ولو أنا ذهبنا في هذا الباب تقتطف قطعاً من زهراته  
المتناثرة ، لا تقتضى ذلك منا وقتاً أوسع مما افترضناه لهذا البحث  
من الإيجاز

وفي الوصف مجزىء بهذه القطعة :

ورياض تختال منها غصون في برود من زهرها وعقود  
فكان الأدواح فيها غوان تتبارى زهواً بحسن القدود  
وكأن الأطياف فيها قيان تتفنى في كل عود يعود  
وكأن الأزهار في حومة الروض سيوف تبسل تحت بنود  
وبهره ما يرى في جنة الدنيا « دمشق » ضريبة الأندلس  
والغرب في بساينها ، وأنهاها ، وجداولها ، فتعاوده  
الذكرى ويقول :

ذكرتني الورقاء أيام أنس سالفات فيت أذرى الدموعا  
ووصلت السهاد شوقاً لحي وغراما ، وقد هجرت المهجوعا  
كيف يخلق قلبى من الذكر يوماً وعلى حبه حنيت الضلوعا ؟  
كلما أروع المذول بعنبي في هوام ، يزداد قلبى ولوعا  
ثم يقول في وصفها :

محاسن الشام أجلي من أن تحاط بمجد  
لولا حمى الشرع قلنا ولم نقف عند حد :  
كأنها معجزات مقرونة بالتحدى

ويقول :

قال لى ما تقول في الشام حبر كلما لاح بارق الحسن شامه ؟ (١)  
قلت ماذا أقول في وصف قطر هوفي وجنة المحاسن شامه ! (٢)

( البقية في العدد القادم )

عبد الرهادى الشرايبي

(١) شامه : نظره (٢) الشامة : الخال ، نقطة سوداء تكون  
في الوجنة أو في الجبين ، تزيد جماله سحراً

رقيق العاطفة ، بصطبغ شعره بلون الأدب الأندلسى في الرقة  
والجزالة ، والسهولة والامتناع

ولا بدع ، إذا وجدنا ذلك الطابع بارزاً في آثاره الأدبية ،  
فقد رأينا كلفاً بالفن الأندلسى وآثار العرب في الأندلس منذ  
النشأة إلى حد التوهم أنه كان يعيش في ذلك الوسط الخصب  
المشوب العاطفة

وقد قال في أكثر أغراض الشعر : في الفزل ، والشوق ،  
والمح ، والوصف ، والحكم ، والعتاب ، والذكرى المؤلة ،  
والقصص الشعرى

وإذ كان الشطر المهم من حياته قد أمضاه في الشرق بعيداً  
عن الأهل والوطن ، نائياً عن معاهد الصبي ومسارح الطفولة  
الأولى التي لم يبق في ذهنه منها إلا الذكريات المرة المفضة ،  
فنتسطيع أن نكشف كيف كان الشوق والحنين أبرز صفة في  
شعره ؛ ولنسوق لك مثلاً من ذلك . فمن قوله وهو في الشام  
يتشوق إلى بلاد المغرب :

كساها الحيا بُرد الشباب فأما بلاد بها عنق الشباب غامى  
ذكرت بها عهد الصبي فكأنما قدحت بنار الشوق بين الحيازم  
ليالى لا ألوى على رشد نامح عنانى ، ولا أثنيه عن غى لأمم  
أنال سهادى من عيون نواعس وأجنى مرادى من غعون نواعم  
وليل لنا بالسد بين معاطف من النهر ينساب انسياب الأراقم  
تمر الينبا ، ثم عنا ، كأنها حواسد تمشى بيننا بالتمام  
وبتنا ، ولا واش نخاف كأنما حللنا مكان السر من صدر كاتم  
واسمه يقول :

شربت حميا البين صرفا وطالما جلوت حميا الوصل وهو وسيم  
فيماد دمي أن تنوح حمامة وميقات شوقى أن يهب نسيم  
ويشور كامن عواطفه كلما سمع ترجيع حمامة بصوتها الشجي ،

فيصف لك حاله عند سماعها بهذه القطعة الرقيقة :

رُب وِرْقاء في الدياجى تنادى إلفها في غصونها اليساده  
فتشير الهوى بلهس عجيب يشهد السمع أنها عواده (١)  
كلما رجعت توجعت حزناً فكأننا في وجدنا تتباد (٢)

ثم يحاول أن يطفى غلة ذلك الشوق المضى بالصبر ، ويتخذ

(١) عواده : توقع على العود ، ملحنة أغروديتها

(٢) بادمه : فاجأه يريد أن يتبارى في إظهار الوجد